رحلة بارتيا الى الحجاز واليمن والهند

(تابع ما قبلهُ)

ذكرنا في العدد الماضي ارتحال بارتيا من بلاد فارس ووصولهُ الى الهند ونذكر الآن بعض ما رآهُ في الهند مما يرى فيهِ فائدة او فكاهة

اول مدينة زارها من مدن الهند كنباية[1] او خمبايوط قال انها على مصب نهر المى الجنوب من نهر السند وهي جميلة جدًّا يصدر منها القطن والحبوب والفواكه والافاويه والحجارة الكريمة الى سائر البلاد . وعلى ستة ايام منها جبل يخرج منهُ العقيق والجزع وحذاك جبل آخر يخرج منهُ الالماس

وصاحب البلاد اسمهُ السلطان محمود يبلغ عدد رجالهِ ٣٠ الف مقاتل وعندهُ من الفيلة خمسون فيلاً يأتي بها الفيّالون الى قصرهِ كل صباح فتسلّم عليهِ وتنصرف واذا جلس الى طعامهِ جاء المغنون ومعهم آلات الطرب يضربون بها امامهُ . ولهذا السلطان شاربان كبيران جدًّا يعقدهما وراء رأسهِ كما تعقد المرأة ضفائرها ولهُ لحية بيضاء طويلة جدًّا تصل الى منطقتهِ . وقد اعتاد اكل السموم منذ صغرهِ فيتناول كل يوم شيئاً منها فلا تؤذيهِ . وهو على جانب عظيم من الثروة فان ما يرسل من القطن والحرير الى بلاد الفرس والتتر وبر الترك والشام وافريقية واليمن والحبشة يصدر كلهُ من هذه المدينة ومدينة اخرى في الهند

وسافر بعد ذلك الى مدن كثيرة منها مدينة دكّن فقال ان سلطانها من المسلمين يبلغ عدد جيشهِ ٢٥ الف مقاتل ويقيم في قصر جميل جدًّا واذا دخل عليهِ زائر مرّ في ٤٤ حجرة قبل ان يصل الى حجرة السلطان . وقال انهُ يحب الابهة والتفخفخ وهو غني جدًّا حتى ان خلفاءهُ يرصعون احذيتهم بحجارة الياقوت والالماس اما ما يتحلّون بهِ منهُ في اذانهم وعلى ايديهم فيفوق التصوّر . واهل البلاد كلهم مسلمون يلبسون جبباً جميلة من الحرير والنساء يتطيّبن وجوههن مثل نساء دمشق[2]

وبعد ان مرّ بمدن كثيرة وصل الى نارسنجا فقال ان ملكها وثني غني جدًّا وعلى جانب عظيم من القوة فان عدد فرسانهِ اربعون الفاً على قدرة الخيل هناك لانها كلها تجلب الى البلاد من الخارج فيبلغ ثمن الحصان من ٣٠٠ برداي[3] الى ٨٠٠ وكان عند هذا الملك ٤٠٠ فيل

(١) كنباية مدينة في الجانب الغربي من بلاد الهند زارها المسعودي سنة ٣٠٣ للهجرة وكان سلطانها في ايامهِ من الرتبيين (٢) كان سلطان دكان في ذلك الزمن ابو المظفر يوسف عادل شاه مؤسس دولة بني عادل شاه (٣) البرداي يساوي دينارين اي نحو عشرين فرنكاً

وكثير من المجن السريعة . ثم وصف حرب الهنود بالقبلة فقال انهم يضعون على الفيل سرجاً يربطونهُ على وسطهِ بسلاسل الحديد ويضعون على كلٍّ من جانبيهِ هودجاً يجلس في الهودج ثلاثة رجال ويجلس على عنق الفيل رجلٌ يقودهُ فيكون عدد الرجال سبعة كلهم مدججون بالسلاح وعليهم الدروع من الزرد ويلبسون الفيل ايضاً درعاً من الزرد يغطي رأسهُ وخرطومهُ ويربطون بخرطومهِ سيفاً طويلاً مثل اليد سيف الخانة والعرض . والرجل الذي يجلس على عنق الفيل يامرهُ بالتقدم او التأخر او يقول لهُ اضرب هذا الرجل او لا تضربهُ فيفهم الفيل كلامهُ كما يفهمهُ الناس . والفيل اذا هرب لا يلوي على شيء ويخاف النار كثيراً والهنود من ابرع الناس في عمل النيران والمواد الملتهبة يقذفون بها الافيال في الحرب فتنهزم منهم

وقال ان ملك نارسنجا اغنى ملك سمع عنهُ واخبرهُ الكهنة ان دخلهُ في اليوم اثنا عشر الف يوداي . وقال ان جواده يساوي مدينة من مدن ايطاليا لكثرة ما عليهِ من الحجارة الكريمة وان الملك اذا ركب للنزهة ركب معهُ ثلاثة ملوك او اربعة وكثير من الامراء ونحو خمسة الاف فارس

ثم سافر الى مدينة كلكتا فوصف عادات اهلها وملوكها وذكر الفرق التي في الهند فقال ان اصحاب الفرق الدنيئة اذا رأوا رجلاً من كرام القوم تنحوا عن طريقهِ لئلا يتنجس الجو منهم او هووا كما تهوي الكلاب وهربوا حتى يتنبه القادم فلا يستنشق الهواء الذي يستنشقونهُ . واذا مات السامري اي الملك[1] وكان لهُ ابناء او اخوة او ابناء اخوة لا يخلفهُ واحد منهم بل يخلفهُ ابن اختهِ وان لم يكن لهُ ابن اخت فاقرب اقاربهِ لامهِ . واذا مات امير من بيت الملك حلق الناس كلهم لحاهم وشعور رؤوسهم وامتنع الصيادون عن صيد السمك ثمانية ايام وهجر الملك نساءهُ وامتنع عن مضغ التنبول سنة كاملة . والهنود يستعملون التنبول منبهاً ويمضغون معهُ النوفل والكلس المصنوع من الاصداف بعد حرقها[2]

ووصف قتال اهل كلكتا فقال ان ملكهم عندهُ مئة الف مقاتل من المشاة وسلاح رجالهِ السيوف والفرق والحراب والقسي . واذا خرج الى الحرب رفعت فوقهُ مظلة ذهبي

(١) السامري لقب ملوك كلكتا وسماهُ ابن بطوطة السامري قال وسلطانها كافر يعرف بالسامري

(٢) التنبول ورق شجر من الفصيلة الفلفلية انواعها كثيرة منها (Chavica betle) وطعمها وبسمو الافرغ (Betel) . والنوفل ثمر شجرة كالنخل اسمها (Areca catechu)

شارة الملك عندهم وتقوم مقام الراية ومتى تقابل جيشهُ بجيش العدوّ وصار على رمية سهمين منهُ خرج البراهمة الى جيش الاعداء وقالوا لهم ليبرز مئة مقاتل منكم ومئة مقاتل منا ويتمّ الاتفاق على ذلك ويخرج المقاتلون ويقفون بين الجيشين ويقتتلون ومتى قتل اربعة او خمسة من كل جانب دخل البراهمة بينهم واوقفوا القتال واعادوا كل فرقة الى جيشها فتنتهي الحرب بذلك

ولقي في كلكتا كثيرين من تجار الحجاز واليمن والشام وبلاد الترك والحبشة وهرمز وبلاد فارس وكابل وغيرها من الاماكن وقال ان الهنود قلما يسافرون بحراً فتجارة البحار كلها في ايدي العرب وفي كلكتا نحو ١٥ الفاً منهم . ثم ذكر اسماء صفنهم منها ما هو شائع عند العرب كالسنبوك والمعدية والشختور

ووصف قصر الملك والحجارة الكريمة التي عندهُ فقال يصعب عليَّ ان اقدّر ثمن الجواهر التي يلبسها وقد كان مريضاً تلك الايام والحرب مستمرة بينهُ وبين البرتغاليين فلم يكن رضيّ الخلق على انهُ كان لابساً كثيراً من الجواهر في اذنيهِ وعلى ذراعيهِ ويديهِ وقدميهِ فكانت رؤيتهُ تبهر الانظار . وعندهُ مخزنان ليس فيهما سبائك الذهب عدا النقود وقد قال لي احد البراهمة ان النقود التي عندهُ تبلغ مئة حمل . وعندهُ ايضاً صندوق طولهُ ثلاثة اشبار وارتفاعهُ شبر ونصف شبر مملوء بالحجارة الكريمة على انواعها

ثم وصف الاقاويه والاثمار التي في كلكتا فقال ان شجر الفلفل الاسود كثير جدًّا فيها وهو شبيه بالدوالي ينمرس بجانب شجرة اخرى يتعلق بها كما يتعلق النبت المعروف بالعاشق ويتدلى منهُ عناقيد فيها حب الفلفل يكون اخضر اللون قبل جنيهِ فاذا جنوهُ نشروهُ في الشمس فيسود ويصير مثل الفلفل الذي نراهُ في بلادنا[1]

ومنها الزنجبيل وهو عروق كبيرة يستخرجونها من الارض ثم يقطعون منها عقداً صغيرة ويظمرونها في التراب فاذا مضت عليها سنة صارت عروقاً كبيرة . وهناك الاهليلج على انواعهِ

---

(١) قال ابن بطوطة في وصف شجر الفلفل ما نصهُ « وشجرات الفلفل شبيهة بدوالي العنب ولم يغرسوها اولاً انما يرسل فتصعد فيها صعود الدوالي الا انها ليس لها عناقيد وهو الفلفل كما للدوالي . واوراق شجره تشبه اوراق التفل وعليها بثور اوراق الطيق وفي عناقيد صغار أحمر كحب الهيل فيه اذا كانت خضراء . فاذا كان اوان الخريف قطفوهُ ونشروهُ على الحصر في الشمس كما يصنع بالعنب عند تزبيبه ولا يزالون يقلبونهُ حتى يستحكم يبسهُ ويسود »

وشجره قدر شجر الكشرى وحمله عناقيد كحمل شجر الفلفل[1] . ومن ثماركلكتا الشكي والبركي والانبج[2] وشجره المنجو وهم يكبسونه كما نكبس الزيتون . ومن اشجارها النارجيل وفوائده كثيرة جدًّا خشبه للوقود وجوزه للاكل ويعمل من ليفه حبال للمراكب ونسيج كالحرير يلبسونه ويستخرج من ثمره الخل والماء والزيت والسكر وتسقف البيوت بما يسقط من اوراقه . وقال ان النارجيل كثير جدًّا في كلكتا وقطعه محرم وانه اذا نشبت حرب بين ملك وآخر وقتل احدهما ابناء الآخر ربما اصطلحا بعد هذه الحرب اما اذا قطع احدهما النارجيل الذي في بلاد الآخر تحكم العداوة بينهما الى ما شاء الله

ورأى حاجي [illegible] في كلكتا لان الحرب بين ملك كلكتا والبرتغاليين اضرت بتجارة البلاد كثيراً فسافرا منها الى كولم وكان ملكها من الوثنيين وليس عنده كثير من ملوك الهند . وقال انه رأى فيها بعض المسيحيين التابعين للقديس توما الانجيلي[3] وانه يأتيهم قسيس من مدينة بابل كل ثلاث سنوات يعمد من يكون قد ولد منهم وقال ان اسماء البعض منهم يوحنا ويعقوب ومتى وتوما وطقوسهم شبيهة بطقوس الكنيسة اليونانية . وذكر مدينة اخرى لعلها مليابور رأى فيها بعض المسيحيين ايضاً واخبروه ان قبر مار توما على مسافة اثني عشر ميلاً من

(١) الاهليلج (Myrobalanus) ثمر شجر هندي يعرف منه احد عشر نوعاً بعضها يؤكل واشهر انواعه البليلج (Belleric) والاهليلج الكابلي (Chebule) والاملج (Emblic) والاسود والاصفر ويسمى الاسود الهندي منه بالشهري ويعرف عند العامة بالهندي شهيري (٢) الشكي والبركي صنفان من الثمر ذكرهما ابن بطوطة واسمها بالانكليزية (Jaak) . والانبج معرّب ابنا هو الثمر المعروف بالجهر في مصر ولا يزال يعرف بالانبا والصنف في اليمن وعمان ويظهر انه قديم جدًّا في عمان قال في تاج العروس في باب نبج والانبج كاحمد وتكسر باؤه ثمرة شجرة هندية يرتب بالعسل على خلقة المخروخ محرّف الراس يجلب الى العراق في جوفه نواة كنواة المخرخ فمن ذلك اشتقوا اسم الانبجات التي ترتب بالعسل من الانرج والاهليلج وغيره كذا في اللسان والاساس وهو معرّب انبه قال ابو حنيفة شجر الانبج كثير بارض العرب من نواحي عمان بغرس غرساً وهو نوعان احدهما غرنة في مثل هيئة اللوز لا يزال خضراً من اول نباته وآخر في هيئة الاجاص يحمض ثم يطيب اذا ابنع ولها حينئذ حبة وريح طيبة وبكبس الحامض منها وهو غض في الجباب حتى يدرك فيكون كاكلة اللوز في رائحته وطعمه ويعظم شجره حتى يكون كشجر الجوز وورقه كورقه فاذا ادرك فالحلو منه اصفر والحرمنه احمر) انتهى . وذكر ابن بطوطة وسماه النبة الخ فسكون وسماه ابن البيطار الانج وداود الانطاكي الانبا (٣) لا يزال مؤلاء المسيحيون في الهند يعرفون بمسيحي مار توما لانهم يقولون ان مؤسس كنيستهم توما الانجيلي ويرى اكثر الباحثين انهم فرع من الكنيسة النسطورية نشأوا في الهند في اوائل القرن السادس للمسيح بان طقوسهم واعتقاداتهم نسطورية ويتممون الصلاة باللغة الكلدانية . وقد كان عددهم سنة ١٨٩١ نحو اربع مئة الف

المدينة ويقوم بحراسته جماعة منهم وان لهذا القبر كرامات وعجائب اخبرهم بها قسيسهم

ثم ارتحل الى جزيرة سيلان ووصف الافيال وكثرتها هناك وقال ان الحجارة الكريمة كثيرة جدًّا في هذه الجزيرة منها الياقوت ويخرج من سفح جبل يبعد عن البحر نحو ميلين والارض هناك ملك السلطان فاذا اراد احد التجار ان يستخرج الياقوت ابتاع قطعة من الارض وحفر فيها ويراقبه رجل من قبل السلطان فكل حجر يزيد وزنه عن عشرة قراريط يأخذه السلطان وما نقص عن ذلك يأخذه التاجر . وقال ان على مقربة من الجبل خور فيه معادن البجادي اي حجر سيلان والصفير اي الياقوت الازرق والبنفش والياقوت الاحمر[1]

وذكر الفواكه في سيلان فقال انها افضل من فواكه كلكتا منها الخرشوف[2] والبرتقال. ووصف شجرة القرفة فقال انها شبيهة بالغار لاسيما في اوراقها وثمرها مثل ثمره لكنه اصغر

ثم ذكر جبل سرنديب وقدم ادم قال اخبرني تاجر عربي ان في رأس الجبل الذي مر ذكره كهف يقصده الزوار مرة في السنة ويقيمون فيه الصلاة لان ادم على زعمهم اقام فيه ليكفر عن معصيته وان اثر قدمه لا يزال هناك وطوله شبران[3]

وسافر من سيلان الى تيسرم في بلاد سيام فقال ان سلطانها من الوثنيين وعلى جانب عظيم من القوة والغنى يبلغ جيشه مئة الف مقاتل مشاة وفرسانًا وسلاحهم السيوف القصيرة والقسي والحراب المصنوعة من عيدان القنا والدرق المصنوع من الذبل اي عظم السلحفاة وهم يلبسون دروعًا مصنوعة من النسيج المحشو بالقطن

وذكر الحيوانات الهائجة والوحشية فقال انها كثيرة جدًّا منها البقر والضأن والماعز والخنازير الوحشية والوعول والذئاب وقطاط الزباد والاسود والطواويس والبزاة والشواهين

---

(١) هذا يشبه كثيرًا ما ذكره ابن بطوطة قال (والياقوت الهرمان الخبيث انما يكون بهذه البلاد (اي كنكار) فمنه ما يخرج من الحجر وهو عزيز عندهم ومنه ما يخرج منه وجزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع مواضعها وهي مملكة فيشتري الانسان القطعة منها ويخرج من الياقوت فيجد احجارًا بيضاء منصبة وهي التي يتكون الياقوت في اجوافها فبعضها المحاكاكون فيحكونها حتى تخلق من احجار الياقوت فمنه الاحمر ومنه الاصفر ومنه الازرق ويحسنون البلم وعاداتهم ان ما بلغ منه من احجار الياقوت الى مئة مثقال فهو للسلطان وما نقص عن ذلك القيمة فهو لاصحابه وصرف مئة قم مئة دنانير من الذهب ... ولقد رأيت على جبهة الفيل الابيض سبعة احجار منه كل حجر اعظم من بيضة الدجاجة ورأيت سكرجة على مقدار الكف من الياقوت

(٢) لعله يريد بالخرشوف الشمندر ونعرف في بلاد العرب بالسلجل المندي. وبارتيا لم يكن قد رأى منه الفاكهة قبلاً فساها الخرشوف لمشابهتها له (٣) يسمى الكهف مغارة الخضر وقد زاره ابن بطوطة واقام فيه ثلاثة ايام على عادة الزوار ورأى اثر القدم وقال ان طولها احد عشر شبرًا

والبيغاءات المختلفة الالوان والحجال والاراتب والدجاج وقال ان الدجاج كبير جدًّا عندهم وينزلون الديوك للقتال ويتراهنون على الفائز منها ورأى ديكين اقتتلا خمس ساعات بغير انقطاع ثم سقطا ميتين

ثم وصف حرق الموتى فقال انهُ اذا مات الملك او احد البراهمة حرقت جثتهُ وحفظ رمادها في قارورة . ومتى حرقوا ميتًا اضرموا النار واشعلوا فيها انواع الطيب والافاويه كالعود والبخور الجاوي والصندل والبقم والميعة والعنبر واللبان واغصان المرجان ولا يحضر احد من النساء وقت حرق الجثة غير ارملة الميت . ثم يبدأ بقتلي ما يوجد من رفاة الزوج تولم امرأتهُ وليمة لاقربائها واقرباء زوجها وتخرج معهم الى المكان الذي حرقت فيه جثتهُ ثم تلبس احسن ثيابها وتتزين بما عندها من الحلى والجواهر ويحفر لها اقرباؤها حفرة على طول قامة الانسان [illegible] مقداراً كبيراً من القنبول حتى تغيب عن صوابها ثم تنهض وتأخذ في الرقص على آلات الطرب هي والنساء اللواتي يكنَّ معها وبعد ان ترقص زمنًا تجري مسرعة الى النار وتلقي نفسها فيها وتفعل ذلك عن طيب خاطر ظنًّا منها انها ذاهبة الى السماء فمتى القت نفسها في النار اخذ اقرباؤها يرمونها بالخشب والزفت ليسرعون موتها حتى لا تتعذب . والمرأة التي لا تحرق نفسها بعد وفاة زوجها تعد بغيًّا ويقتلها اهلها . وهذه العادة اي حرق الجثث متبعة عند اشراف البلاد فقط والباقون يدفنون دفنًا

وسافر من تنيسريم الى مدينة ملقة وهو اول من كتب عنها من الاوربيين ثم انتقل الى سومطرة وجاوى وغيرها من جزائر المحيط الهندي وعاد الى كلكتا واقام فيها زمنًا تظاهر فيه بالتقوى والصلاح وصار الناس يتبركون به ويقبلونهُ امامًا لاحد المساجد ثم احتال على رفيقهِ الفارسي وهرب الى حصن من حصون البرتغاليين واخبرهم باستعداد العرب والهنود للحرب وكانت الحرب ناشبة بين البرتغاليين وملك كلكتا وانصاره من العرب فشهد بعض المواقع التي جرت بين الفريقين برًّا وبحرًا ثم سافر في مراكب البرتغاليين الى سقطرى ومنبسة وموزمبيق ومنها الى بلاد البرتغال على طريق رأس الرجاء الصالح فمنحهُ ملك البرتغال رتبة الفرسان لانهُ ساعد البرتغاليين في حروبهم مع العرب والهنود ثم استأذن الملك وسافر من بلاد البرتغال الى مدينة رومية وهي مسقط رأسهِ فكتب رحلتهُ هذه ونشرها سنة ١٥١٠ وجهل امرهُ بعد ذلك